

كتَاب الفَرق بَين الأفْعال

للإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم العَياني

عليهما السّلام (ت ٤٠٤هـ)

مُنتزع من مَجمُوع كُتبه ورسائِله

تحقيق

إبراهيم يحيى الدّرسي

منشورات مركز أهل البيت (ع) للدراسات الإسلامية

كتاب الفرق بين الأفعال[1]

والرد على الكفرة الضلال، أصحاب الطبائع الملحدين الأنذال الأوباش الجهّال، أهل التكمّه في الشك والمحال.

من كلام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي العياني صلوات الله عليه وعلى آبائه الكرام، وصلى الله على محمد وآله وسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وبه نستعين:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطاهرين، الأخيار الأبرار الصادقين، ونسأل الله التوفيق لما قصدنا من الإحسان، ونعوذ به من الضلالة والجهل والخذلان.

وأشهد أنه لا إله إلا الله الحق اليقين ، الواحد الأحد الصمد المبين.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وصفوته ووليه وخليله، بعثه بالحق هادياً إلى الرشاد، وداعياً إلى رحمة الله لجميع العباد، وزاجراً عن الجهل والغي والفساد؛ فاجتهد صلوات الله عليه غاية الإجتهاد، وأنذر جميع من حوته أقطار البلاد، حتى أتاه ما وعد الله من اليقين، بعد أن أوضح به سبل حقائق الدين، فصلوات الله عليه وعلى ذريته الصادقين، والحمد لله رب العالمين.

فلما قبضه الله إليه، واختار له من الثواب ما لديه، علم أن سيكون من عباده من يحتاج إلى الهدى، وكشف الضلالة عنهم والردى، بذوي الدين والفضل والحجى، ذرية الرسول أئمة الهدى، وأعلام الدين ومصابيح الدجا، فكشف بهم أغطية الضلال، وقمع بهم من عاند الحق من الجهال، وأهل الحيرة الكفرة الضلال، فمن طلب الحق عند غيرهم فقد جهل، ومن عاندهم فقد ضل وخذل، لأن الله لو علم أن العباد يكتفون بعقولهم لما فرض سؤال آل نبيه -عليهم السلام- فمن رام أن يكتفي عنهم بعقله، فقد وقع في ضلالته

---

[1] - هذا الكتاب من النسخة (ج) زيادة .

وجهله، لأنه كلف نفسه ما لا يطيق، ومن فعل ذلك منع من التوفيق، ومن لم يوفقه الله وقع في العمى لفراقه للصفوة الحكما، و لم يزدد بذلك من الحق إلا بعداً لما تكلف ونصب نفسه له من الهدى، وقد أمر أن يقصد غيره قصداً، لأن الله قد جعلهم معتمداً، و لم يأمر بقصد غيرهم أحداً؛ فالحمد لله الذي جعلنا من ذريتهم، وبحبوحة نسبهم وذروتهم.

وبعد: فلما رأينا خبط جميع الناس في الجهل والضلال، وترددهم بين هؤلاء الجهال، واختلافهم في موجدات جميع الأفعال، حدانا ذلك على تبيان جميع الأحوال، ليعمل بذلك من أراد التعلق بذي الجلال، ولا يلتفت إلى غيره من ترهات المقال، وما زخرفه الأوباش من المحال.

[أقسام فعل الله تعالى وبطلان تأثيرات الطبائع]

فأول ما نبدأ بذكره من الأفعال: فعل الله الواحد الأحد الكبير المتعال؛ فألطفوا النظر فيما يلقى إليكم من المقال؛ فنقول:

إن فعل الله يخرج على وجهين ، وينقسم في المعقول على **قسمين:**

أحدهما: فعل فعله بالإختراع يستخرج بالألباب، مثل فعله لأول ما صنع، وفطر من الأهوية وابتدع، وكذلك خلقه للسماوات والأرضين، فذلك ابتداع من أحكم الحاكمين.

والوجه الآخر: فعله بالعلل بالمعلولات، مثل إثباته للأرض بالجبال الراسيات، ومثل إحراقه للزبد بالنيران، ومثل ضربه للماء بالرياح، ومثل خلقه للحيوانات بعواقب النكاح، ومثل حياته التي أثبتها في الأجسام، وأقرها بطبائع الماء والطعام، ومثل خلقه للأشجار بما نزل برحمته من الأمطار، وحياة جميع الحيوان والثمار، وهو يقدر مع ذلك أن يخلق جميع الأشياء كخلقه للهواء والنار والماء، ولكنه أراد أن يدل ذوي الألباب على حكمته بإصلاح الأنساب بالأسباب، لأنه لا يفعل المعنى بالمعنى إلا عالم بما صنع وبنى.

فنقول: إن الله عز وجل دبر جميع مصالح العباد، بالطبائع الأربع المركبة في جميع الأجساد، لما أراد من المصالح ونفي الفساد، وهي: الحر، والبرد، واليبس، والرطوبة؛

وخالف بينها وجعلها من الأضداد، لما أراد من البيان للعباد، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الطبائع لمن رغب في الحق والرشاد.

فأما غرضنا في هذا الكتاب فهو بيان جميع الأفعال، ونفي ما خالف الحق من المقال، وخبط هؤلاء الظلمة الجهال بما لا تنكره أبداً عقول المكلفين، ولا يقدر على دفعه أحد من الخلق أجمعين.

وأفعال الله عز وجل بالطبائع هي كما ذكرنا من حياة الأشجار بالماء، فأما التصوير فمن رب العالمين، ولا يكون ذلك أبداً من غير أحكم الحاكمين.

ووجه آخر: أن صعود الماء إلى الثمار، وعلوه مصعداً في أعالي الأشجار، لا يكون إلا من الواحد القهار، لأن الماء طُبِعَ على الإنحدار، و لم يطبع على الصعود والعلو في الأغصان، لأن ذلك لا يوجد إلا بالله الواحد الرحمن، وكذلك النطف التي في الأرحام، فتصويرها من ذي الجلال والإكرام.

وأما الغذاء بحرارة الأرحام، فهو طبيعة تفضل الله بها على الأنام، كما تفضل عليهم بالماء والطعام؛ فمن زعم أن الرحم التي صَوَّرَتْ، وأن المياه والأرضين التي قَدَّرَت، وصنعت الصورةَ ودَبَّرَتْ، فقد كفر صاغراً وأشرك، وهلك بجهله وأهلك؛ لأن فعل الماء هو الغذاء وفعل الله التصوير، وبينهما فرق عند أهل التدبير، لأن الماء يغدو بطبيعة البرد واللين، والصورة في نفسها ليس لها طبيعة غير حكمة الله الحق اليقين، لأن كل شيء في الصور يدل على الحكمة والعلم الحق المبين.

ولله عز وجل فعلان: فعل الإرادة والقصد في الأحيان، وفعل طبائع كامنة في الجمادات والأبدان، كمَّنها قبل هذا الزمان، وفي هذه الأزمان.

وأما الإرادة والقصد منه تبارك وتعالى فمثل خلقه للذكر والأنثى.

وأما الفعل الكامن فمثل طبائع الحجارة والنيران، ومثل المياه والحديد وغير ذلك من صنع الرحمن.

واختلف الناس في هذه الطبائع:

فقال بعضهم: هي تفعل بغير صانع صنعها، ولا فاطر فطرها وابتدعها، وهم الملحدون ، الكفرة الأنجاس الجاحدون، وقد رددنا عليهم في كتاب الطبائع وغيره ما يكتفى به عن إعادته وتكريره.

وقال آخرون من المسلمين وأولياء الله المتقين: إن الله عز وجل كمّن في هذه الطبائع خيراً وشراً، وجعل فيها نفعاً وضراً؛ فمن تناول منها شيئاً نفع به وضر، وصرفه أينما شاء من الخير والشر، مثل ما كمّن الله برحمته من طبائع أدوية الأمراض، ومما يعرض لعباده من الأعراض، فبالمشاهدة يعلم أنه ينفع ويحرك تارة، ويقطع ويكف هيجان المرة، ويقمع ويلين الطبيعة، ومنه ما يحمد، ومنه أيضاً ما يبرد، ومنه ما يحرق، ومنه ما يروح البدن، ومنه ما يعرق، وبالمشاهدة أيضاً أن من الطبائع ما يقتل ويمرض مثل ما يستعمله أعداء الله من السموم، وما قد نهى عنه الواحد الحي القيوم.

مسألة: فإن سأل سائل مسترشد، أو قال قائل متعنت ملحد: ما تقولون في المؤمنين، وأصحاب الأخدود المتقين، الذين أحرقهم أعداء الله بالنيران؟ وما قولكم في الأئمة الطاهرين الذين قتلهم أعداء الله الكافرون، وأهلكوهم بطبائع السموم، أتقولون ذلك من الحي القيوم؟ أم هو من فعل الكفرة الظالمين، الخونة الأشرار المجرمين؟

فالجواب في ذلك وبالله نستعين: أن إهلاك أصحاب الأخدود، كان بظلم أهل الكفر والعنود، و لم يكن ذلك من الله الواحد المجيد؛ فأما النار التي أحرقتهم فلم يحرقهم الله بها، وإنما أحرقهم الذين ألقوهم فيها، وإنما يعذبهم الله على حركتهم، وطرح أولياء الله في النار وإسقاطهم، وجرأتهم على الله في هلاكهم؛ فأما الإحراق في نفسه فهو من طبيعة النار، التي كمّنها الله وجعلها في الأشجار، فتناولها أعداء الله للأبرار، وذلك الحر فعل فعله الله وجعله، وصنعه للمنافع ونزله، فصرفه أعداء الله في غير طاعته، وقلبوه في سخطه ومعصيته.

وهو لا يخلو من أحد أوجه لا بد منها ، ولا منصرف أبداً في المعقول عنها:

إما أن يكون الله هو الذي أحرق أولياءه في النار.

وإما أن تكون طبيعة الحرارة من فعل الفجار، الظلمة الخونة الأشرار.

وإما أن يكون ذلك من فعل النار.

وإما أن يكون لا من فعل الله ، ولا من فعل الكافرين ، ولا فعل الطبيعة الكامنة ، ولا من فعل المقتولين.

فإن قلت: إن الله هو الذي قتل المؤمنين؛ فهذا ما لا يجوز على رب العالمين، ولا ينسبه إليه أحد من المسلمين.

وإن قلت: إن ذلك الإحراق من فعل الكافرين، فهذا ما لا يقوله أحد يعقل من الناس أجمعين، لأن الكافرين لا يقدرون على فعل الإحراق، لأن الحرارة بطبيعة من فعل الواحد الخلاق، وإنما فعل أعداء الله الحركة والسكون والضمير، والطرح لأولياء الله في النار والسعير.

وإن قلت: إن ذلك الإحراق من فعل المقتولين، فهذا أشبه شيء بقول المجانين، فلا بد من الرجوع إلى ما قلنا من فعل الطبيعة الكامنة في الأجسام التي كمّنها الله لمنافع الأنام.

فإن قال: كيف تفعل الطبيعة وهي لا تعقل ولا تغني ولا تقصد شيئاً من الأمور ولا تهتدي؟

فالجواب في ذلك وبالله التوفيق والتسديد، ومنه العون والنصر والتأييد، والقوة والهداية إلى ما نقصد ونريد: أنها تفعل بإذن الله فعل طباع الكمون، ولا تفعل فعل أهل العقول والتدبير، لأن ذوي العقول والتدبير يفعلون بالإختيار، وفعل الطبيعة بالتركيب، وإنما أنكرنا على ذوي الإلحاد أنهم أضافوا الحكمة إلى الجماد فقلنا ذلك يستحيل، ولا تقبله عن قائله العقول، لأن الجمادات لا تفعل أعاجيب التدبير، ولا يكون ذلك إلا من العليم القدير، لأنا وجدنا الحكمة التي في الجوارح، وتركيب أدوات جميع المصالح، تدل على علم الصانع.

.................[1].

الألباب مثل خلقه عز وجل للذكر والأنثى وجعله لأجسامهما صنعاً محدثـــاً، ومثـــل خلقه وفرقه بين الروس والأقدام، ومثل فرقه بين مخارج المـــاء والطعـــام، ومداخلهمـــا ومجاريهما ومسيرهما في الأجسام، ومثل فرقه بين العقول والأوهـــام، ومثـــل تقديمـــه للمراضع في صدور الإناث، لعلمه بحاجة الأطفال قبل الإحداث، ومثل هداية أطفـــال البهائم إلى الرضاع لعلمه بفاقتها إلى الإلهام، ومثله صنع ذي الجلال والإكرام؛ لأن الطبائع لا تفعل أعاجيب التدبير، ولا يتم ذلك إلا بالله العليم الخبير، الواحـــد الأحـــد الســـميع البصير، الفرد الصمد العليم القدير، مصلح الأمور بالأمور، والعالم بعجـــائب التقديـــر، والمحسن إلى العباد بالتصوير، وما لا يحصى من عجائب التدبير، وصلى الله على ســـيدنا محمد[2] خاتم النبيين وسلم تسليماً.

* * * * * *

---

(١)- قال في الأم: المبيض منها في الأم.

(٢)- في الأم: على سيدنا خاتم النبيين. من دون لفظ محمد.

كتاب الولاء والبراءة[1]

مما سأل عنه أبو عبدالله محمد بن يقضان.

من كلام: المهدي لدين الله الحسين بن القاسم صلوات الله عليه وعلى آبائه الكرام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلواته على خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين:

سألت يا أخي -تولى الله حفظك- عما أوجب الله على عباده من الولاية لأوليائه، والعداوة والمباينة لأعدائه.

والجواب في ذلك: أن الله عز وجل بين للعباد ما يأتون وما يذرون، وافترض عليهم قبول ما به يؤمرون، فكان مما أمرهم به وأوجب عليهم من أصول دينه عداوة أعدائه الأشرار، ومحبة أحبائه الأخيار، فقال عز من قائل: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات:١٠]، فوجبت موالاتهم، وقال: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ [هود:١١٣]، فوجبت عداوتهم، إذ ليس من حكمة الحكيم أن يساوي بين المحسنين والمسيئين، وذلك قوله: ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٦)**﴾ [القلم].

ثم اعلم -أكرمك الله بهدايته وأتم عليك ما أولاك من نعمته- أن الهجرة واجبة على جميع المكلفين، لا يعذر الله في تركها أحداً من المخلوقين، ولها وجوه وأبواب وسنذكرها ونشرحها بعون الله ونفسرها.

ولا يجوز لأحد أن يهجر ويباين قبل الدعاء إلى الرحمن، ولا تكون الهجرة إلا بعد البيان، والتلطف والبر والإحسان، وقد روي عن النبي -صلوات الله عليه- أنه كان يقرب الناس ويدنيهم إليه ويلطف بهم ويفرش ثوبه لهم، لتكمل الحجة بذلك عليهم،

---

[1] - هذا الكتاب من النسخة (ج).